المحاضرة (٣)

الأصول الاعتقادية للاقتصاد الإسلامي

لكل نظام اقتصادي أصوله وقواعده الفكرية التي يؤمن بها وينطلق منها في رسم أنظمته وسياساته الاقتصادية .

فالنظامان الرأسمالي والاشتراكي ينطلقان من قاعدة المادية وتقديس المال .

أما النظام الإسلامي فيعتبر الإيمان هو المنطلق الرئيس والركيزة الأولى لكل جوانب ومجالات الاقتصاد الإسلامي .

ولذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يوجه الخطاب في كتابه الكريم إلى الذين آمنوا ، وذلك في سائر الأحكام الشرعية ومنها أحكام المعاملات .

يقول الله تعالى في آيات الربا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ (البقرة: ٢٧٨) .

فوجه الخطاب إلى عباده المؤمنين يأمرهم بتقواه ، وذلك بتركهم الربا إن كانوا مؤمنين حقاً ، وفي آخر الآيات أعاد الأمر بتقواه والحذر من عقوبته في الدار الآخرة : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ (البقرة: ٢٨١)، مما يعكس أن الالتزام في أساسه التزام عقدي إيماني .

والمسلم حين يلتزم بهذه الأوامر والنواهي من إيتاء الزكاة وبذل الصدقات ، وترك الربا والغش ... الخ فإنه إنما يلتزم بها ؛ لأنها من عند الله عز وجا ، وهو يدرك في قرارة نفسه أنها خير له في عاجل أمره وآجله .

وارتباط الاقتصاد الإسلامي بالعقيدة يظهر من خلال:

الأصل الأول: الإيمان بالله :

فهو الخالق، المالك، الغني، الرازق، سبحانه وتعالى :

١) فهو سبحانه وتعالى خالق كل شيء **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ (غافر: ٦٢) .

٢) وهو سبحانه المالك لكل شيء : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (المائدة: ١٧) .

٣) وهو سبحانه غني عن خلقه كريم سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ (فاطر: ١٥).

٤) وهو الرازق لخلقه، وكتب الأرزاق لجميع الخلق : ﴿ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٨)،﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾ (الروم: ٤٠) ، ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ (العنكبوت: ٦٢) .

وقد كتب سبحانه الأرزاق لجميع الخلق ، بل حتى الدواب التي لا تستطيع أن تحمل رزقها وتدخره قد يسر الله لها أسباب الرزق والحياة ، كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٦٠) .

ويترتب على ذلك :

١) المسلم يؤمن بأن المالك للأموال العامة والخاصة هو الله سبحانه وتعالى ، فالله جل وعلا هو خالق كل شيء ومالك كل شيء : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، فهو مالكنا وما نملك من الأموال والثروات .

٢) وإذا كان الله قد سخر الكون فإن هذا لا يعني الكسل بل على الإنسان أن يعمل بقدرته وطاقته لأجل أن يحصل على الرزق الذي قسمه الله له ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الجمعة: ١٠) . وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ ﴾ (الملك: ١٥) .

٣) يجب على الإنسان الاستفادة مما سخر الله في هذه الأرض من الطيبات ويستخدمها فيما أباحه الله مما يحقق عمارة الأرض ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾ (البقرة: ١٦٨).

الأصل الثاني: الإيمان باليوم الآخر:

المسلم يوقن بأنه راحل من هذه الدنيا وأنه سيحاسب على ما فعل في هذه الدنيا حيث ﴿ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾(البقرة: ٢٨١) ، و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧ ﴾ (الأنبياء: ٤٧) .

والدار الآخرة ليست محلاً لتفاضل المالي ، حيث لن يضر الفقير فقره إذا كان قد قام بما أوجب الله عليه ، كما أن الغني لن ينفعه غناه إذا كان مقصراً في طاعة ربه ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ ﴾ (الليل: ٥ - ١١) ، و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ ﴾ (سبأ: ٣٧) .

ويترتب على هذا الإيمان باليوم الآخر:

١) علو همة المسلم، وأنه يريد ما عند الله والدار الآخرة ، قال تعالى : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ ﴾ (الشورى:

٢٠) ، ويقول صلى الله عليه وسلم (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له) .

٢) معيار الربح يختلف عند المسلم وغير المسلم، فغير المسلم مقياسه زيادة ربحه المالي فقط، أما المسلم يعمل أعمالاً ليس لها مردود مالي في قناعته وما ذلك إلا لإدراكه أن جزاءه في الدار الآخرة التي هي خير وأبقى من هذه الحياة الدنيا . قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴾ (البقرة: ٢٤٥) .

كما أن المسلم الصادق الراضي برزق الله يمتنع عن بعض الأعمال التجارية التي تحقق عائداً مرتفعاً بسبب أنها محرمة شرعاً ، وذلك خشية من عذاب الله وعقوبته .

٣) يجب على المسلم أن يراقب نفسه وتصرفاته فلا يأخذ إلا حقه ولا يعتدي على حقوق الآخرين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) .

الأصل الثالث: الإيمان بالقدر خيره وشره:

يؤمن المسلم بعقيدة القضاء والقدر وأن الله سبحانه قد قدر كل شيء كما قال سبحانه عن نفسه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر: ٤٩) . وحديث عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) .

ويترتب على الإيمان بالقضاء والقدر ما يلي :

١) يجب على المسلم أن يطلب الرزق من محله ويسعى في تحصيله قدر استطاعته، فكل آتيه رزقه، أما التواكل وترك فعل الأسباب فليس من الدين . جاء في الحديث : (لا تستبطئوا الرزق ، فإنه لن يموت عبد حتى يبلغه آخر رزق هو له ، فأجملوا في الطلب ، أخذ الحلال وترك الحرام) .

٢) أن يرضى المسلم بما قُدِّر عليه ولا يضجر، عند الربح يشكر، وعن الخسارة يصبر، وهذا هو سبب اطمئنان المؤمن كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) .

المبادئ المرتبطة بهذه الأصول :

من المبادئ المرتبطة بهذه الأصول الثلاثة والناتجة عن الإيمان بها مبدأ الاستخلاف ، ومبدأ أن المال وسيلة لطاعة الله ، ومبدأ كفاية الخيرات لحاجات البشر ، وسنبين هذه المبادئ الثلاثة :

المبدأ الأول: الاستخلاف:

أي أن الله تعالى أورثنا هذه الأموال ممن قبلنا، واستخلفنا في هذه الأموال، وأمرنا أن نقوم بحق الاستخلاف وعدم صرف الأموال في المحرمات أو الإسراف في المباحات ، كما أمرنا بإنفاق بعضه في وجوه الخير والإحسان .

وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ (الحديد: ٧) .

والإيمان بهذا المبدأ يجعلنا ندرك أن هذه النعم منَّة من الله علينا استخلفنا فيها.

وهناك فرق بين من ينظر إلى أن المال هو من جمعه بخبرته، ومن يستشعر منَّة الله عليه.

ولقد ضرب القرآن المثل برجلين أحدهما مسلم والآخر كافر ، أما المسلم – وهو سليمان عليه السلام – فإنه قال : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النمل: ٤٠) ، أما غير المسلم – وهو قارون – فقال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ ﴾ (القصص: ٧٨) ولم ينسب الفضل إلى الله فكانت عقوبته العاجلة الخسف به وبأمواله التي تطاول بها في الأرض .

المبدأ الثاني: المال وسيلة لطاعة الله:

تتفاوت الفلسفات والأديان في نظرتها للمال تفاوتاً متبايناً . فبينما نجد الأفكار التي ترفض المال ومتع الدنيا معه وتصور أنه شر يجب الخلاص منه ، نجد في مقابل ذلك تلك الأفكار التي تقدس المال وتجعله هو الإله الذي يجب أن يعبد .

وبين هذين الاتجاهين المتناقضين يقف الإسلام موقف الوسط ، فهو يعتد بالمال ، ويضع له قيمة بمكانته في نفس الإنسان المجبول على حبه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ (العاديات: ٨) فالمال زينة الحياة الدنيا : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الكهف: ٤٦) وبه تقوم مصالح الناس : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (النساء: ٥) إنه خير وصلاح لمن أخذه من حله فوضعه في محله ، ولكن الإسلام لا يغالي في مكانة المال لدرجة التقديس والعبادة بل إنه يحذر من هذا المسلك مبيناً أن المال فتنة وابتلاء للإنسان ، وأن على المسلم أن لا يجعله همه وغايته في هذه الحياة : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٨) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار ، والدرهم ، والقطيفة والخميصة ، إن اعطي رضي وإن لم يعط لم يرض) .

إن الإسلام يجعل المال وسيلة للدار الآخرة، فالدنيا في حقيقتها زائلة، لذلك المسلم يجعل هذا المال طاعة لله تعالى في أن يكسبه من حلال وينفقه في حلال .

يقول الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (القصص: ٧٧) .

المبدأ الثالث: كفاية الخيرات لحاجة البشر:

يقرر الإسلام أن الخيرات التي أودعها الله في الأرض والتي سيودعها كافية لحاجات البشر من الغذاء والكساء والسكن وسائر الضروريات والحاجات التي يحتاج إليها الإنسان ، بل وكل دابة في الأرض كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا

وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٦٠) . وهذا من رحمته ولطفه بعباده .

وعلى ذلك فإن الاقتصاد الإسلامي يقوم على مبدأ أن الخيرات التي أوجدها الله في الأرض، وما سيوجده فيها سبحانه كاف لحاجات البشر ، ليس في ذلك ندرة مطلقة ، ولا زيادة مفرطة بل كل شيء بقدر معلوم .

يقول تعالى : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الشورى: ٢٧) .

أما أسباب المجاعات فهو راجع لأسباب من أبرزها:

١) عدم استخدام الإنسان لكامل جهوده الذهنية والبدنية، وقصوره في استغلال الموارد التي أنعم الله بها عليه ، ومن ذلك الفساد الإداري وضعف التخطيط الاقتصادي وسوء التوزيع للموارد والذي تعاني منه كثير من الدول .

٢) الكفر بنعم الله ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (النحل: ١١٢) .

٣) مبالغة البشر في حاجاتهم المادية ، وعدم وجود الترشيد الاستهلاكي المناسب .

٤) اختلاف توزيع الموارد الطبيعية والكثافة السكانية على مستوى الدول .

٥) الأزمة الروحية التي يعاني منها العالم لغياب التعاليم الدينية الصحيحة عنه ، وذلك ناشئ عن حروب وتمزق شعوب .

٦) قد يكون هذا النقص الفردي أو الدولي ابتلاء من الله ، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٥) .